العلم والدين

أيهما يجب أن يكون ميزاناً للآخر

أ.د. سعيد رمضان البوطي
أستاذ في كلية الشريعة - جامعة دمشق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ. ومن يضلل فلا هادي. والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي العلم والرحمة وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

لعل من الضروري أن أشير بين يدي هذا البحث إلى تصور خاطىء يقع فيه كثير من الباحثين، بصدد الموازنة بين الدين والعلم.

ذلك هو تصور أن جوهر الدين والعلم يتنافسان دائما على خطين متوازيين، ينتهي كل منهما إلى غاية معينة!.. وطبيعي أن يستتبع هذا التصور من أصحابه عقد موازنة بين خطي العلم والدين، وأن يتساءلوا فيما بينهم : أيهما أجدى وأسلم، اتباع خط الدين أم التحول عنه إلى خط العلم؟.

فيثور من ذلك الجدال والخصام، ثم لا ينتهي الأمر بأصحاب هذا التصور إلا إلى أحد مذهبين، كل منهما يمعن في نقض الآخر وتسخيفه.

مذهب يرى تفضيل خط الدين على ما يقضي به العلم، ويرفع في سبيل ذلك شعاراً اسمه: «تخليص الدين من سلطان العقل»، ومذهب يرى تفضيل العلم على الدين، ويرفع في سبيل ذلك شعار العلمنة أو العلمانية. ويسمى أصحاب المذهب الأول في نظر هؤلاء: «اعتقاديين» لأنهم يجنحون إلى اعتقادات غيبية لا يدعمها العلم، بينما ينعت أصحاب هذا المذهب الثاني من قبل الآخرين بصفة الكفر والإلحاد، والتمرد على قدسية الأديان!.. ويعد كل من أوروبا وأمريكا الحلبة الواسعة الأولى لصراع هذين المذهبين.

وليس هذا الصراع إلا ثمرة لتصور أن الدين في جوهره (أي مهما كان نوعه) يسير على خط منفصل متوازٍ مع خط العلم وما يقضي به. ولا ينطلق معه من بداية ولا ينتهي معه إلى نهاية.

فلئن كان هذا التصور صحيحاً، فما من شك في أنّ على العاقل ألا يتردد في اختيار خط العلم وحكمه، وأن عليه أن ينبذ أي خط آخر منفصل عنه مهما

كان اسمه. ذلك لأن من أبرز سمات الإنسان أنه لا يخطو الخطوة الأولى في تعامله مع الكون، إلا بهدي من عقله. وإنما تتمثل روح العقل في العلم وحده.

ولكن هل صحيح أن الدين في جوهره، إنما يسير دائما على خط يوازي خط العلم؟

الحقيقة أن الباحث اذا أسلم عقله لقواعد العلم، وقيد نفسه بمنهجه وضوابطه، لا ينبغي عنه بديلاً ولا يتذرع به إلى هوى سابق يميل إليه، وواصل سيره على صراط مستقيم على هذا الأساس، فلا بد أن يسلمه هذا الصراط إلى ضرورة الخضوع لواقع لا مرد له. وهو بجملته ما نسميه بالدين ـ أي منتهى الانصياع والخضوع ـ بقطع النظر عن الدخول في تفصيل التعريف به أو الحديث عنه.

وإذن، فخطأ كبير ذلك التصور الذي يقضي بأن للدين سبيلاً مستقلة يناكب بها سبيل العلم. وخطأ أكبر أن نعقد أي موازنة بين هذين السبيلين الوهميين، لنهتدي إلى الأجدى منهما!. إذ لا ريب أن الميزان الوحيد أمام حركة الفكر الإنساني إنما هو العلم وحده. وليس للإنسان العاقل في نقض هذه الحقيقة أي اختيار.

غير أنا نقول من منطلق هذه الحقيقة ذاتها: إن على الإنسان إذا سار في سبيل العلم، ألا يقف منه عند أي مرحلة من مراحله أو ثمره من ثماره، بل عليه أن يواصل السير والبحث ليتبين النهاية التي سيسلمه إليها ذلك السبيل العلمي الهادي، مجرداً أنفسه عن أي عصبية لهوى من أهواء النفس، موطناً نفسه أن يستجيب لمقتضيات العلم ويخضع كيانه لأحكام تلك النهاية التي تقف عندها رحلة العلم أياً كانت.

فإذا فعل الانسان ذلك، فما من ريب أنه سيتلاقى وجهاً لوجه مع الدين الحق. وسيجد أنه الثمرة الأخيرة الكبرى لغراس العلم وشجرته الباسقة المتفرعة.

وما الذي يجب أن يصنعه الإنسان، إذا اكتشف هذه الحقيقة على درب بحثه العلمي؟

واضح جداً أن من مقتضى بحثه العلمي أن يدين بالـولاء لتلك الحقيقـة. وهذه الدينونة ليست بحـد ذاتها ممـارسـة لعمـل علمي، ولكنهـا تطبيق عملي لبعض مقتضياته.

إنك تسبر أغوار الأرض بالبحث العلمي، فتقع على ثروة في باطنها. فتقبـل عليها تستغلها وتستفيد منها. من الواضح أن هذه الاستفادة ليست بحـدّ ذاتها ممارسة علمية، ولكنها نتيجة منطقية للدراسة العلميـة. وكما أن من الخطـأ أن تضـع تجارتك بهذه الثروة على خط مستقل يوازي خط البحث العلمي في بـاطن الأرض، وأن توازن بينهما فتقول: إن البحث العلمي أجدى من السعي التجاري ـ كذلك من الخطأ أن تضـع الـدين الحق على خط مـواز لخط العلم، ثم تـوازن بينهما لتنتهي إلى أن العلم أفضل من الدين!..

* * *

ولكن ما الدليل على أن السير في ركـاب العلم، يهـدي صـاحبـه أخيراً إلى محراب الدين، ويفرض عليه الخضوع لسلطانه، وكيف يتم ذلك ؟

إن حديثنا هذا لا يتسع لإجابة مفصلة على هذا السؤال. إلا أنـه لابـد من بيان ولو كان موجزاً، تتضح به صلة العلم بالدين ويتجلى وجه العلاقة القائمة بينهما.

يجب أن نعلم قبل كل شيء، أن العلوم المختلفة ليست في حقيقتها إلا أجزاء لكل واحد!. لا يستقل بعضه عن بعض، فصلة ما بينها كصلة الفصول المتعددة من الكتاب الواحد، لا يتجلى في الذهن مضمون حقيقي لأي منها، إلا استناداً إلى معرفة ما تضمنته الفصول الأخرى.

فعلم الاجتماع مثلاً وثيق الصلة بعلم التاريخ. وعلم التاريـخ مـوصـول النسب بالتاريخ الطبيعي، وهذا بدوره شديد الصلة بالعلوم الطبيعيـة المختلفـة. وهذه العلوم ترسم بدورها إشارات استفهـام لا يتصـدى لها إلا علم الفلسفـة، وينتهي الأمر بهذا العلم والذي قبله إلى جدار هـائل لا يمكن اختراقـه، ألا وهـو جدار النواميس الكـونيـة الثـابتـة، والتي تـدور على محورهـا أحـداث الكـون وتطوراته. وهي نواميس لم ينل العلم منهـا حظـاً سـوى الـوصف لأغشيتهـا

ومرئياتها الظاهرة، دون أن يملك سبيلا إلى معرفة كنهها أو إلى أي تبديل أو تغيير فيها. وإليك الدليل:

لقد تقدمت المدارك البشرية العامة تقدماً كبيراً، ولقد تهيأ لإنسان الحضارة الحديثة من أسباب المعارف والعلوم ما خيل اليه أنه حقق حلما لم يتحقق لغيره من قبل. ومع ذلك فإن إنسان هذه العلوم كلها لم يستطع ان يزحزح شيئاً من تلك السنن والنواميس الكونية عن مكانه، فضلا عن أن يقوى على نسخه وتبديله.

فلا تزال شقة ما بينه وبين المشيب وضعفه كما هي، لم تسعفه علومه في إطالتها، فضلا عن أن تسعفه في القضاء عليه. ولا يزال على الرغم من كل المنجزات العجيبة التي وصل اليها، يموت كما تموت أي ذبابة ضعيفة في الكون، بل لا يزال أمد ما بين ولادة الإنسان وموته كما هي في جملتها. بدليل ما تلاحظه من أن كلمة «الجيل» لا تزال تحمل مدلوها اللغوي القديم: دفعة من البشر تمر فوق جسر هذه الدنيا ضمن ميقات زمني لا يتجاوز مئة عام تقريباً، أي إن شيئاً من العلوم الحديثة للطب والصحة ورعاية الحياة والأبدان، لم يسطع ان يتدخل لتعديل هذا الميقات الزمني المحدود لعمر الجيل. ولا يزال إنسان الحضارة والعلوم الحديثة اليوم مضطراً إلى محاكاة ما كان يفعله أجداده السابقون من قبل: يستجدي من السماء شرابه ومن الأرض قوته ومن ضروع الأنعام غذاءه. فإذا شح بالعطاء هذا أو ذاك، استبد به القلق، ونال منه الهلع، ووقع ضعيفاً بل صريعاً بين براثن الجوع والسغب.

ثم إن هذا الإنسان كلما التفت إلى ذاته يتأمل فيها، لم يدرك من هذه الذات إلا مجموعة ظاهرات وعلاقات تختفي وراءها أسرار عجيبة لا يخترق إليها علم، ولا يصل إلى كنهها سلطان جهاز ولا فكر. لقد بذل كل ما أمكنه من جهد في سبيل أن يعلم شيئاً عن حقيقة الروح التي تسري في كيانه، فانقلب من سعيه جاهلاً لم يأت بطائل. وأذعن الجميع بعد تجربة ومحاولة طويلتين بأن الروح شيء يستعصي على العلم وطبيعته، ويندّ عن فكر الإنسان وفهمه.

أجل، لقد أذعن بذلك حتى الماديون الذين قرروا ـ واشتهوا ان يصدقهم الواقع ـ أنّ الحياة من مادة انطلقت وإليها تعود. وإليكم ما يقوله الإمام الأول

للمادية الجدلية بعد ماركس، إليكم ما يقوله إنجلز في كتابه أنتي دوهرنغ: «إن العلم الطبيعي لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى، وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد حتى في إنتاج الهيولى البسيطة أو الأجسام الأحينية الأخرى من العناصر الكيميائية، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئا بخصوص أصل الحياة...»(١).

وينقل لينين تأكيدا لهذا الكلام عن فيورباخ في تعليقاته الفلسفية المشهورة(٢).

فإن قيل لعل هذه الحيرة كانت قبل أن تتقدم العلوم إلى الشأو الذي وصلت إليه فيما بعد. قلنا: إن العلوم تقدمت فعلا في كثير من المجالات، ولكنها فيما يتعلق بمسألة أسرار النواميس الكونية عموماً، وسر الحياة أو الروح خصوصا، لا تزال باقية عند حدودها السابقة القديمة بين الجهالة والحيرة.

لا أدل على ذلك من التقرير الذي انتهى إليه مؤتمر علماء الحياة الذي عقد حول مائدة مستديرة في نيويورك عام ١٩٥٩، أملاً في الوصول إلى فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على الأرض. وكان فيهم العالم الروسي الكسندر ايفانوفيتش أدبارين، أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفيتية.

لقد قرر المؤتمرون في نهاية بحوثهم بالإجماع، أن أمر الحياة لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوماً ما، وأن هذا السّر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية وكيميائية خاصة(٣).

هذا كله إلى جانب ما يراه المتأمل في هذا الكون، من كثرة هائلة تنتهي من الانسجام إلى وحدة لا انقصام لها، ومن تلاق عجيب فيما بين مظاهرها المتنوعة على تحقيق غايات محدودة ضمن نظام دقيق لا يستقدم ولا يستأخر.

---

(١) أنتي دوهرنغ ترجمة فؤاد أيوب ص ٩٠.

(٢) الدفاتر الفلسفية : ٢ / ٥٧.

(٣) انظر خبر هذا المؤتمر في كتاب قصة التطور للدكتور أنور عبدالعليم ص ١١ ـ ٢٣ وانظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية ص ٥٩ لصاحب هذا البحث.

حتى ألجأ ذلك أئمة المادية أن ينعتوا الطبيعة بالعقلانية، وأن يطلقوا على ما يبدو فيها من ظاهرة الغائية: عقلانية الطبيعة.

إذن، فالعلم يوصل الإنسان من خلال تبصيره بهذه الحقائق وغيرها، إلى يقين بأنه مقود في هذا الكون وليس قائداً، محكوم وليس حاكما، يتحرك ولكن بمقدار طول الزمام المثبت في عنقه، ويتصرف ولكن ضمن نطاق الحكم الذي أبرم في شأنه، ومن ثم فإن العلم يوصل الإنسان إلى يقين بأن من وراء هذا الكون مكوناً، أبدع نواميسه، فهو يمسكها من قدرته وتدبيره في قبضة عجيبة لا تغلب، وبأن ما يسمى بعقلانية الطبيعة ليس في الحقيقة إلا مظهراً لذاك الإله الذي دبر فأحكم تدبيره.

فإذا قرر العلم ذلك، فقد أسلمنا إلى يقين بوجود الله عز وجل، وإلى يقين بأنه موصوف بجميع صفات الكمال، منزه عن جميع سمات النقصان. ثم إن العلم يقف عند ذلك الحدّ ليدفعنا إلى مواصلة السير في الطريق.. وإنه الآن ليس الا طريق الاهتداء إلى ذات هذا الإله. والتعرف لمشيئته وسلطانه والاصغاء إلى أوامر وأحكامه.

وهكذا يتجسد ما أوضحناه من أن الدين الحق نهاية في طريق العلم، وليس خطاً يناكبه ويوازيه، وأن إقبال الإنسان إلى الدينونة له، ليس إلا تحصيلا لثمرة العلم. وهو يفوق في القداسة ممارسة أي جهد علمي بحدّ ذاته.

* * *

والآن، وقد أوغل الإنسان في الطريق الذي أسلمه إليه العلم ودفعه فيه، ألا وهو طريق الدينونة لسلطان هذا الإله الذي خلق فقدّر ـ بأي ضياء يجب ان يستعين ليضمن لنفسه سلامة المسير، وليطمئن إلى أنه لم يتنكب عن الجادة التي ترضي الله عزل وجل، وأنه لم يحش ذهنه بتصورات ومعتقدات لا أصل لها؟

والجواب أن الضياء والميزان هنا، لا يمكن أن يتمثل إلا فيما تضمنه خطاب الله عز وجل لعبادة من إخبارات وأحكام. وقد تلاحقت هذه الخطابات له على مرّ الأجيال والدهور عن طريق الرسل الذين اختراهم الله تعالى من

عباده ليبلغوهم أوامره وأحكامه. وكان آخرها وأشملها ذلك الخطاب الذي أنـزل على خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وهذه الخطابات تتضمن، في مجوعها، وبقطع النظر عن أيـدي التحـريف التي امتدت إلى كثير منها، حقائق اعتقادية واحدة لا تشـاكس فيهـا ولا تخالف. وهذا معنى كلام الله عز وجل في آخر ما أنـزل من الكتب وهـو القـرآن: «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، ومـا وصّينـا بـه إبـراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..».

ثم ان هذا الخطاب الإلهي يبدأ فيأمر الناس جميعا بـأن لا يتعـرفـوا على شيء مما يريدون أن يستيقنـوه إلا بميـزان من العلم ودلائلـه، مهما كـان هـذا الشيء، ديناً أو غيره. إنه يخاطب الإنسان قائلاً: «ولا تقف ما ليس لك بـه علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنـه مسؤولاً»!.. وإنك لترى أن «مـا» من قوله : ولا تقف ما ليس لك به علم، أداة عموم، فهي تشمـل كـل شيء حتى الإيمان بالله وكتبه ورسله!.. وهكذا فإن الإسلام يرفض أن يقـام لـه ذاتـه أي بنيان في الفكر إلا على دعائم من اليقين والعلم.

ولما رأى علماء المسلمين أن القرآن يلزمهم بالاحتكام إلى هذا الميـزان دون غيره بصدد اعتناق أي مبدأ من المبادىء، بدأوا فوضعوا منهجاً علميا للبحث عن الحقيقة، ورسموا من خلاله قواعد علمية دقيقة للتفريق بين الحقائق وأشباهها، ثم عمدوا إلى القرآن ذاته فوضعوه قبل غيره في ميزان هذا المنهج، ابتغاء التـأكـد من مصدره، ومعرفة مدى احتمال أن يكون كلام أي بشر من النـاس، حتى إذا انتهوا إلى يقين علمي بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكـون كـلام أي مخلـوق مهما كان نوعه أو بلغ شأنه، أسلمهم ذلك اليقين إلى الجزم بأنـه ليس إلا كما يقـول هو معرفاً بنفسه: «وإنه لتنزيل رب العالمين، نـزل بـه الـروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين».

ثم إن هذا اليقين كان لابد أن يسلمهم بطبيعة الحال إلى اليقين بكل ما قد تضمنه هذا الكتاب من إخبارات وأحكام.

وعندئذ، كان لا بدلهم من ان يضعوا منهجـاً علميـا آخـر مهمتـه تفسير النصوص القرآنية على وجهها العربي الصحيح. كي يصلوا إلى معـرفـة معـاني

النصوص القرآنية التي أرادها الله عز وجل. فاستخرجوا من قواعد العربية وأصولها منهجاً علمياً على غاية من الدقة والأهمية، وهو ذاك الذي يسمى اليوم بقواعد تفسير النصوص أو بقواعد أصول الفقه. وهو منهج يدين له بالفضل والولاء جميع علماء العربية وعلماء القانون في بلادنا العربية.

فعلى هدي من قواعد هذا المنهج، فسرّت نصوص القران، وتم التمييز بين محكمة ومجمله ومتشابهه وبين نصوصه القاطعة وظواهره المحتملة. وعلى أعقاب ذلك وصل علماء المسلمين إلى معرفة ما تضمنه كتاب الله تعالى من إخبارات تورث اليقين الجازم، وأحكام تتعلق بالأعمال والسلوك.

ثم لما كان من جملة ما أخبر به القرآن بيان نبوة الأنبياء الذين خلوا من قبل، ونبوة سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله الله خاتما للنبيين إلى الناس جميعاً، وبيان ان من مهمة رسوله ﷺ تفسير غوامض القرآن وتفصيل مجمله، وأن على الناس أن يلتزموا بسنته فيجعلوا منها بياناً وتفصيلاً لمعاني القرآن ـ التفت العلماء إلى سنته ﷺ، وهي جملة ما تركه من أقوال وأفعال وإقرارات، مما يتعلق بالدين وتكليفاته، فحصّنوها ضمن نفق من القواعد العلمية التي تتعلق هذه المرة بضبط الرواية والإسناد، واستخرجوا لذلك فناً رائعاً، لا يزال إلى اليوم مبعث تعجب واعجاب لدى كل من يعنون بدراسة تاريخ الحضارة الإسلامية!.. إنه فن مصطلح الحديث وفن الجرح والتعديل.

فلقد كان من ثمرات هذا الفن أن صنفت الأحاديث النبوية إلى صحيحة وغير صحيحة، وقسّم الصحيح منها إلى آحاد يورث الظن القوي، وإلى متواتر يفيد الجزم واليقين، فاستبعد كل ما كان دون درجة الصحيح من النظر والاعتبار، واعتمد الصحيح بقسميه في نطاق الاستدلال على الأحكام العملية، واعتمد المتواتر منه وحده في نطاق العقائد والأمور المتعلقة بأصول الدين.

ثم إن الصحيح تم ضبطه بمراعاة شروط تتعلق برجال السند وبطبيعة المتن، لا مجال للحديث عنها في هذا المقام.

وهكذا بقيت السنة النبوية مكلوءة بعناية هذا المنهج العلمي الدقيق، وبقيت محاولات الدس والافتراء، بعيدة عن أن تدنو إلى صرح السنة الصحيحة

المطهرة، فضلا عن أن تندمج فيها أو تلتبس بها. إنك لتنظر، فتجد في بطون الكتب أخباراً كثيرة ساقطة، وإسرائيليات لا أصل لها. ولكنك تتأمل، فتجد بين الغثاء الباطل والسنة الصحيحة الثابتة حاجزاً حصيناً من الدلائل والضوابط العلمية لا يمكن اختراقه.

إذن، فإن صرح هذا الدين الذي أسلمنا إليه البحث العلمي الدائب، لم يقم في كل من أصوله ونصوصه ورواياته إلاّ على موازين علمية راسخة. ولقد أقيم في سبيل ذلك ثلاثة من المناهج العلمية الدقيقة:

أوّلها: المنهج العلمي العام للبحث عن الحقائق على اختلافها، وعمدته المنطق وأصول النظر.

ثانيها: المنهج العلمي الخاص بتفسير النصوص. وهو ما يسمى بقواعد علم الأصول.

ثالثها: المنهج العلمي الخاص بضبط الرواية والإسناد، وهو ما يسمى بعلم مصطلح الحديث وفن الجرح والتعديل. وفي مكتبتنا الإسلامية اليوم مؤلفات متنوعة في كل من هذه المناهج الثلاثة التي تعتز بها الحضارة الإسلامية أيما اعتزاز.

وإنما أجهد العلماء أنفسهم في استخراج هذه المناهج الثلاثة، امتثالا لقوله عز وجل: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ وحرصا على ألا يخطو المسلم خطوة واحدة في نطاق فكره أو سلوكه الديني إلا تحت مظلة واقية من ضوابط العلم وموازنيه.

* * *

ومع ذلك فإن بعض الناس يتوهمون بأن الدين قائم في جملته على الإيمان بغيبيات بعيدة عن ضوابط العلم وموازينه.

وإني لأقول: إن هذا الزعم في حق الإسلام لغو لا يتماسك عليه أي حجة علمية، وإن قائلة يجعل من نفسه أبرز مثال لمن يسلم يقينه حقاً إلى وهم غيبي، قفزاً فوق براهين المنطق والفكر.

إن كان مقصود هؤلاء الناس بغيبيات الدين أساسه الأول الذي يتمثل في الإيمان بوجود الله عز وجل، فقد أوضحنا ـ ولو بشكل موجز ـ أن سير العقل مع قواعد العلوم المختلفة لابدّ أن يسلم الإنسان أخيراً إلى اليقين بوجود الخالق عز وجل. وما ألحد الملحدون في ذات الله عز وجل، إلا بعد أن تمردوا على الخط الذي كان يدفعهم إليه المنطق العلمي، لاسيما فيما يتعلق بالدلائل التي تهدي إلى الايمان بالله عز وجل، وذلك لقرارات سابقة ألزموا بها أنفسهم، انتصاراً لهوى من الأهواء أو مذهب من المذاهب.

وإن كان مقصودهم بها ما حدثنا عنه كلام الله عز وجل ـ بعد أن آمنا ـ من أخبار النشأة الثانية بعد الموت، وأمر الحساب والميزان، والجنة والنار.. الخ فإن هذه الإخبارات ما استأهلت أن تحظى بيقين المسلمين، إلا بعد أن تم عرضها على ثلاثة موازين علمية، وأيدها كل منها أتم التأييد.

فقد عرضت قبل كل شيء على ميزان البحث في دلائل وجود الله الذي تعزى إليه هذه الاخبارات والأحكام، كما أوضحنا ذلك من قبل.

ثم عرضت على الميزان الذي من شأنه أن يكشف عن صدق نسبة هذا الكلام إلى الله عز وجل أو عدم صدقها.

ثم عرضت على ميزان ثالث هو قواعد تفسير النصوص ومنهجه، وذلك للتأكد من دلالات النصوص القرآنية والوصول إلى حقيقة المعاني المرادة منها.

فمنذا الذي يقدر العلم وسلطانه، ويرى قرار هذه المناهج العلمية الثلاثة في الإذعان لما تضمنته إخبارات القرآن وأحكامه، ثم يسعه أن يغمض العين عن ذلك كله، ثم يقفز من فوقه قفزاً ويتجاهله تجاهلاً تاماً، ليتسنى له أن يقف بعد ذلك فينعت المؤمنين بقرارات هذه المناهج بأنهم غيبيون لا يضبطون عقولهم فيما يعتقدونه بدلائل العلم؟

ترى ماذا تعنى كلمة «الغيبية» عند هؤلاء الناس؟

أهي غيبوبة العقل عن الفهم، أم غيبوبة العين عن الرؤية، أو الحس عن الإدراك. أم تراها من قبيل غيبوبة الواقع في تلافيف الماضي، أم غيبوبة الآتي في ضمير المستقبل؟

وأيّ هذه الغيبيات ترى تعد، بنظرهم، امتهانا للعلم وارتكاسا للفهم، أم هل إن جميعها محكوم عليه بالخروج عن قانون العلم وأحكامه، وكيف تم هذه الخروج؟

أليس من أخص واجبات هؤلاء الذين يتباهون بالعلم، أن يستعينوا بالعلم نفسه للإجابة على هذه الأسئلة وألا يكونوا غيبيين أو عشوائيين في اقتحام الأمر على غير بصيره ولا هدى؟

إن أحدهم ليسمع نشرة الأرصاد الجوية، وهي تخبر عما ستتعرض له البلاد من حرارة أو برودة، فيصدق الخبر ويستيقنه، ثم يمضي يأخذ للأمر عدّته، مع انه غيب لم يظهر له بعد!..

وربما نظر أحدهم في مجلة أجنبية، فوقع فيها على خبر عن جهاز عجيب تم اختراعه، تعاد به ذبذبات الأصوات القديمة إلى الأسماع، كأنها تنطلق من أفواه أصحابها من جديد. فيستقبل الخبر بكامل يقينه ويمضي يحدث الناس عنه كأن تحت يده ويراه بعيني رأسه، دون أن يسأل نفسه: كيف يصح له في قانون العلم الذي يعتز به أن يسلم بما لم تره عيناه، ولا علم له بكيفية منه ولا تحليل ولا تركيب، كل ذلك قفزاً فوق احتمالات الكذب في الإخبار واللبس في الموضوع والنقص في الشروط؟

ويشير الطبيب الذي يثق به إلى الكأس التي يدنيها من فمه، محذراً من شربها، لأن فيها شيئاً إن دخل جوفه هدده في حياته!.. فيقصي الكأس عن فمه ويرفع عنها يده ويستيقن أن فيها الهلاك. دون ان يتهم نفسه بالغيبية لأنه آمن بما لم يقع بعد، وتصور ما لم يولد بعد من غيبة المكنون، علاوة على أنه قد لا يعلم شيئا عن طبيعة ما في الكأس، ولم يطلع على شيء مما قد عرفه أو قدره الطبيب!..

ثم إن أي واحد من هؤلاء الناس ليفيض فؤاده يقيناً بأشياء لم يرها ولم يحسّ بها، كجدار الصين مثلا او تاج محل أو أهرامات مصر. بل إنه لو رآها بعيني رأسه ما ازداد يقينا بها.

فكيف يصح لهؤلاء الناس أن ينعتوا المسلمين بالغيبيين إذ صدقوا

بإخبارات الله عز وجل، وها هم أنفسهم لا يكادون يتحررون عن سلطان هذه الغيبيات ساعة من نهار؟

إنني لا استعجل فأعير هؤلاء الناس بالغيبية والاستغراق فيها، كما يعيرون هم المسلمين بذلك. ولكني أسألهم فقط: ما هو المنهج العلمي الذي اعتمدوه ـ وهم رجال علم ـ لليقين بتلك الأمور الغيبية التي ضربت المثل ببعض منها؟

إن هؤلاء الناس لو كانوا يقدرون العلم حقاً، لأدركوا أن الأمر في هذه المسألة قائم على منهج علمي ذي شروط وقيود. ولو أنهم كلفوا عقولهم تحمل بعض الجهد في معرفة هذا المنهج، إذاً لما أغمضوا أعينهم ووصموا اسلام المسلمين بالغيبية التي لا يعلمون عن مدلولها شيئاً.

وخلاصة الأمر إن المسائل المتعلقة بماض منصرم أو بمستقبل لم يقع بعد، لا يغني فيها برهان التجربة والمشاهدة. وإنما العمدة فيها الخبر اليقيني الصادق، وإنما يكون الخبر يقينياً صادقاً إذا توافر فيه شرطان اثنان:

أولهما: أن يكون مصدر الخبر موثوقاً به مقطوعاً بأنه أهل لأن يكون مصدراً له أمانة وعلمًا.

ثانيهما: أن يكون السبيل إلى ذلك المصدر سنداً من الرواة المتصلين إلى مصدر الخبر، على أن يكون كل حلقة في سلسلة الرواة جمعاً كبيراً من الناس يحيل العقل إمكان اتفاقهم على الكذب. فإذا تحقق هذان الشرطان فلا شك أن مضمون الخبر يصبح عندئذ حقيقة علمية لا مناص من قبولها واليقين بها.

وهكذا فان تواتر السند + توافر الصدق والأهلية بمصدر الخبر = يقينا علميا بالخبر الذي جاءك عن طريقه، على الرغم من أنه بحد ذاته أمر غيبي، أي خارج عن سلطان أي نافذة من نوافذ التجربة والمشاهدة.

فإذا كان هذا الكلام واضحاً، (وما إخاله يخفى على أحد) فان المسلم لا يحمله إسلامه على اليقين بأمر غيبي، إلا إذا كان خاضعاً لسلطان هذا القانون الذي فرغنا من إيضاحه. وما كان للإسلام الذي يقول دستوره: «ولا تقف

ماليس لك به علم» أن يكلف أتباعه بأنه يغمضوا العين وينفضوا الرأس ويبتعدوا عن العقل، ليحملوا أنفسهم على اليقين بمالا يعلمون.

ثم إنها لمفارقة مذهلة أن يصدق هؤلاء الناس خبر داروين مثلا عن أصل الإنسان، على الرغم من تحفظه وشكه في ذلك. كما صرح بذلك في كتابه أصل الأنواع أكثر من مرة(١) ثم لا يصدقوا إخبار الله عز وجل عن الإنسان بأنه إنما خلقه من صلصال من حمأمسنون وأنشأه في أحسن تقويم، على الرغم من النص القاطع الجازم بذلك. وكلا الخبرين ينطوي على غيب يجثم وراءه ماضٍ سحيق لا تطوله تجربة أو مشاهدة أو حس!.

ولكن أتريد أن تعلم سبب هذه المفارقة؟

السبب أن هؤلاء الناس آمنوا بداروين وأهليته وصدق فراسته وحدسه إيمانا غيبيا لا ترفده أثاره من علم، في حين أنهم لم يؤمنوا هذا الإيمان بالفاطر الحكيم جل جلاله على الرغم مما هو ماثل أمامهم من البراهين على ذلك. فآمنوا بحدس الأول وتخمينه ثم ذهبوا يسمونه علمًا. وأنكروا إخبار الخالق جل جلاله، ثم ذهبوا يسمونه غيبية وجهلاً.

إذن، ففرق ما بين المسلمين وهؤلاء الناس، ليس كامناً في أن أحد الفريقين ينحط إلى الإيمان بالغيبيات دون برهان علمي وأن الفريق الآخر يأبى ذلك تقديرا منه للعلم، ولكن الفرق مايلي:

المؤمنون بالله آمنوا بمصدر الخبر، ثم وجدوا توافر السند وارتفاعه إلى درجة اليقين، فآمنوا به علمًا وصدّقوه قانوناً، والتزموه حقيقة لا مردّ لها.. أما هؤلاء فقد جحدوا أو شكوا بوجود المصدر الأول وهو الله عز وجل. فلم يبالوا بعد ذلك أن يأتي سند الخبر متواترا أو مظنوناً، وجحدوا بالأمر كله من حيث جحدوا بالمصدر من حيث هو.

وحديثنا مع هؤلاء إذن، ما ينبغي أن يكون متعلقا بأمر الغيبيات وموقعها من العلم واليقين وإنما يجب أن يكون محصورا في البحث في الدليل

---

(١) انظر أصل الأنواع لداروين ص ٤١٢ و٤٤٧.

العلمي على وجود الله عز وجل. يليه البحث في النبوات وبراهينها، يليه البحث في أن القرآن هل هو كلام الله أم لا.. حيث نصل أخيراً إلى وفاق بأن هذا الذي يسمونه غيبيات لا يقرّها العلم، حقائق محفوظة في وقاية تامة من حصن العلم والمنطق لا ينفذ إليه أي موجب من موجبات الشك والارتياب.

* * *

وأخيرا هذا هو الإسلام :

قراره الأول والأخير، أن العلم الحقيقي هو الذي يجب أن يكون ميزاناً للدين، وليس العكس. فمن تدين محاكاة وتقليداً، فتدينه في ميزان التكليف الإلهي باطل. ومن اتخذ من شعار الدين ذريعة إلى مصلحة فهو صنو ذاك الذي اتخذ من الكفر والإلحاد ذريعة إلى مثلها.

ولكن اليقين العلمي الذي يهيمن على العقل، لا يستلزم دائما قدرة على التصور الذي يهيمن على الخيال. ذلك لأن القدرة على تصور الأشياء على حقيقتها، تظل دائما متخلفة عن الطاقة العقلية لإدراكها. أرأيت إلى الضرير الأكمة: إنه يدرك وجود الشمس المشرقة بعقله، ولكنه لا يقوى على تصورها في خياله، فلا يكون هذا العجز الثاني دحضاً لليقين الأول.

كذلك وجود الله عز وجل وما يتبعه من يقينيات متفرعة عن الإيمان به: لا مناص للعقل الحر من اليقين بهما. ولكن لا سبيل للخيال البشري إلى التقاط صورة صادقة عنهما.

ولهذا الإجمال تفصيل واسع هام، لا مجال لذكره في هذا المقام.